

من سلسلة

حكايات على ضفاف الخليج

المجرفة

تأليف

محمد عبد العزيز أحمد الباكر

الطبعة العشرون يناير 2008

إهداء خاص

- إلى كل امرأة وفتاة في مجتمعنا..

- إلى الشريفيات العفيفات..

- وإلى المخوعات البائسات..

- إلى مربيات الأجيال بناء الأمة..

أهدي هذا العمل

محمد عبد العزيز أحمد الباكر

]

المقدمة

{إِنَّ الَّذِينَ يُجِبُونَ أَنْ تَشْبَعَ أَلْفَاجِسُهُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} (النور: 19)

ربما كان من الأصوب دائماً حين يمتطي الكاتب صهوة قلمه أن يعود ببصره إلى الرحم الدافئ الذي انطلق منه ضمن مسيرة المعاناة لمعالجة قضايا مجتمعه وتأكيداها.

فالإبداع الحقيقي هو مصداقية الانتماء إلى الجذور واستلهاهم العمل من البنايع الأصلية للتراث الحضاري والروحي والمناخ الإنساني الحقيقي للمولد والمنبت، حيث القيم الثقافية والروحية التي ينظر من خلالها الكاتب إلى الشواطئ الأخرى ليس بمقاييسه ومعاييرها هو بل بحيادية الإنسان الذي يؤمن عن قناعة بثوابت وحقائق الاختلاف دون أن تهتز في جوانبه ووجدانه قناعاته بترائثه وإيمانه بقيمه.

ومن المؤكد أنه حينما بدأ الإنسان الغربي نذب تعاليم السماء التي بعثها الخالق الأعظم جل وعلا من خلال رسله وأنبياؤه تحت وطأة ظروف تاريخية وسلوكيات منحرفة لرجال اللاهوت المسيحي وتحت وطأة التأمير اليهودي والماسوني على المجتمعات والأديان.. بدأ الخلل المدمر للبنى النفسية والأخلاقية لبشر عاجز يشعر بتخبط وحيرة، كما بدأ يشعر في قرارة نفسه بالخوف من الوصول إلى هاوية ليس لها قرار من المؤكد أنها ستودي به وبإنجازاته العلمية والتكنولوجية والحضارية إلى دمار مؤكد لا أمل منه للنجاة.

ربما اختلف معي كثيرون ولا بأس في ذلك فالإختلاف أمرٌ طبيعي، ولكن من غير الطبيعي تماماً أن يكون الإختلاف لمجرد الإختلاف أو أن يكون مبنياً على أوهام ليس لها أساس من منطق عقلي يقبله العقل وتؤكد الدلائل والثوابت.

فإذا أمنا جميعاً بأن توافر الظروف والعوامل الملائمة كغرس من الغراس يؤتي أكله شهياً في مكان ما على الكرة الأرضية لا يمكن لنفس الغرس في مكان آخر لا تتوافر به نفس العوامل والظروف أن يؤتي أكله بنفس الدرجة بل ربما لن ينبت أصلاً، وإذا قدر له أن ينبت فسوف يكون مشوهاً وعاجزاً وسيكون مآله الموت والهلاك.. ساعته سوف تتكون لدينا القدرة على فهم المنطق الذي يجعلنا في نهاية الأمر نقف على أكتاف الحقيقة دونما خداع للنفس أو انبهار بالسراب.

وعلى ذلك ومن خلال هذا الفهم وذلك المنطق يجب أن يعي الكاتب أن الأساس الإبداعي والهدف النهائي للإبداع يجب أن يصب ويُفضي في النهاية إلى الوعي بالقضايا الأصلية والإيمان الثابت بتأصيل الثقافة الذاتية والقيم الروحية والأخلاقية لمجتمعه الصغير التي تتشكل من خلاله دوائر الإلتزام الإنساني التي تبدأ بطبيعتها من الأسرة وتنتهي بدائرة الإلتزام للإنسانية على شمولها مروراً بالمجتمع وقيمه والأمة وتراثها وعقيدتها.

إن الحرية في جوهرها المطلق تعني الفوضى والهلاك، أما في مضمونها الأخلاقي والإنساني فهي تعني الكرامة والسعادة وما يعنيه البعض بالانتماء للغرب قيمياً إنما هو في حقيقته شعور بالدونية والقزامة والضياع.

قال تعالى: {وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أَنْذَرُوا هُزُوًا} (الكهف: 56)

المؤلف

محمد عبد العزيز أحمد الباكر

المجرمة

كان المساء هادئاً كعادته في المدينة الوداعة الصغيرة بمساحتها والكبيرة بعمرانها وتألؤها الحضاري.. أكاد أشتم فيها رائحة عبق الماضي الجميل بهدونه وروعته ووداعة أهلها الطيبين بقلوبهم الطاهرة النقية التي لم تعرف للتلوث والغدر سببلاً، وتنعكس بأريج الطهر والنقاء على ذلك الماضي بجماله وروعته.

رُبما لم يحمل الماضي عبر أيامه ما حمله الحاضر من رفاهية ووسائل حياة عصرية أرغمتنا بدورها على الانخراط في دوامة الريم الحضاري للحياة الحديثة وأمواجها المتلاطمة والمتسارعة وجعلتنا رغم أنوفنا في خضم الأحداث بل ربما في صدر أحداث العالم. لكن الماضي ببساطته وصدقته ونقاته وروعة أيامه وأريج ذكرياته العطرة يجتاحني.. أه من صوت النهام وسط الرجال وهم يصارعون أمواج الخليج ويتحمون هراته في الأعماق ليحصلوا على لآلئه ودانته.. أه من القلب تصدر حارة صادقة والذكريات تسترجع أيام الإنتظار وتتعلج الفقال وانتهاء موسم الغوص وعودة الرجال بأرزاقهم المقفرة يجعل الفارق شاسعاً بين حياة وحياء. بين حياة خصبة مزرهه دافئة بعواطفها الصادقة وإيمانها العميق والسعادة التي تشع وتتألاً في عيون البشر والهنا الذي يتحول إلى واحات ورياض ترتع فيها البراءة والصفاء والنقاء.

وحياة زاخرة بالبذخ والرفاهية ووسائل الحياة الحديثة المريحة والفخمة التي جلبت معها من الشرور ما جلبت وجعلت من التطلعات المظهرية وأنماط الإستهلاك المسرف مداخل للشياطين تعبت من خلالها بنفوس البشر الضامنة إلى التظاهر المزري والمقبت وتتحرف بها في النهاية دافعة إياها إلى بيع النفس والشرف والسقوط في مهوي الرذيلة ومواطن الهلاك.

ولا تقهم النفوس الضعيفة وربما لا تُريد أن تفهم أن الحرية التي يفهمونها وتندرج تحت تفسيراتهم الإباحية هي وليدة قهر النفس وهواها وبذلك فإنها - أي الحرية - تعتبر في هذه الحالة مولوداً سفاكاً وخطراً لا بد من درئه واجتثاث أنيابه وسمومه، وحين شاء الخالق الأعظم ذلك أرسل رسلته يحملون شرائع الهدى ونواميسه لتكون للبشر نور هداية وطريق سعادة. وأتذكر قول الله تعالى ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (النور: 21). ورغم الهدوء الذي كان يلف المكان ويبعث بالخواطر والأمال إلى بعض النفوس ويعبت بنفوس أخرى فقد ساورني شعورٌ خفي بالكآبة كما ساورتني الرغبة في زيارة أحد أصدقائي بمكتبته في عمله الليلي.

ولم يمض وقت طويل حتى كنت أتوجه بسيارتي إلى صديقي وعلى الكورنيش الممتد دائرياً كان الخط المقوس للأضواء يزين جيد المدينة كعقد من لآلي الماضي وربما كان يمثل حاجزاً للظلام الدامس الممتد بأفقه اللانهائي عبر الخليج، وكانت النسمات الربيعية المشبعة برائحة البحر تندفع رقيقة منعشة عبر نافذة السيارة المفتوحة لتلثم وجهي ربما في محاولة لدفع ذلك الشعور الغامض بالكآبة من داخلي. لكن هيهات!! حيث لم تفلح سوى في جعلي استغرق منكناً داخلي متأملاً في هذه النفس البشرية التي يكتنفها الغموض والتعقيد.. سبحان الله في خلقه تمتعت بذلك بعد أن تعوذت من الشيطان وإن هي إلا دقائق معدودة حي كنت أترجل من سيارتي لمفاجأة صديقي في مكتبته والذي لم أراه منذ فترة ليست طويلة.. كنت معتاداً على زيارة هذا الصديق ذي الأخلاق الحميدة والشهامة التي تنبئ عن كريم معدنه وخصاله الطيبة، وكنت مع بعض أصدقائنا المشتركين معتادين على البوح له بهمومنا ومشاكلنا لقدرته غير العادية على تحمل ذلك الأمر برحابة صدر وقدرته على تهوين الأمور وتيسيرها.. باختصار كان ذا قدرة غير اعتيادية في خبرته واتزان عقله ورجاحة تفكيره.

وهناك أمام المبنى القائم على طرف المدينة رأيت ذلك الصديق وهو جالس على مقعد منكناً بكلتا يديه على ظهر مقعد أمامه وملقياً برأسه على ساعديه.. كان وحيداً وكانت الأضواء خافتة، كان وكأنه لم يشعر بوجودي واقترابي منه حتى ظننته في غفوة، وحين مددت يدي تجاهه مد يده بتثاقل ليصافحني دون أن ينهض ولم يترك يدي بل جذبني بيده التي صافحني بها وهو يدفع المقعد الآخر الذي كان يستند برأسه إليه داعياً إياي للجلوس وهو يحييني بصوت يحمل صدي الانكسار والألم.. الأمر الذي شد انتباهي وحواسي معاً.

حييته وأنا منزع وجلست أمامه فيما هو ينظر إلى وعلى وجهه ابتسامة بانسة ثم بادرني قائلاً: «لا عليك ولا تنزعج الآن فما زال هناك متسع من الوقت للإزعاج».

فقلت مندهشاً: ما الأمر؟ أنا أشعر باندهاش وحيرة بل وانزعاج.. قل لي بالله عليك.. طمئني. اعتدل صديقي ورجع برأسه إلى الخلف وهو يقول: «إنها كارثة ومأساة لصديق أدعو الله أن يلطف به ويخفف عنه».

ثم تنهد تنهيدة طويلة وهو يرمقني بنظرة عميقة ثم أردف: «قاتل الله الخيانة». كان الفضول والحيرة يمزقان مشاعري لأستطلع الأمر ولأفهم ما الذي يجري، فقلت له متعجلاً حديثه: خيراً أيها الصديق.. لقد أفزعتني بهذه المقدمة المخيفة.. ما الذي حدث؟ وبدأ صديقي حديثه عن أشنع خيانة لشرف يتعرض لها إنسان.. إنها إحدى صور الإنحراف الذي تم في غياب الرادع والوازع الديني والاجتماعي والإستهتار بالقيم والإنبهار الحضاري الزائف بنتاج حضاري زائف لثقافة غربية نبعت وتأصلت في مهوي الزيف والضلال.

بدأت القصة ذات أسمية ربيعية باردة من تلك الأمسيات التي تداعب طقس بلادنا في فصل الربيع حيث كان الشاب الدمث الخلق ينهي دراسته التخصصية في إحدى الجامعات الأمريكية وكان في نهاية مرحلته التي استغرقت سنوات أربع كان يشعر خلالها وهو يتابع حياته ودرسته.

ورغم انسيابية الحياة وسلاستها بأن وطنه وجذوره هناك تناديه وتمدُّ دبرته يديها تتعجله العودة بتحصيله العلمي وخبرته الإنسانية ليشارك في نهضتها وبنائها.. لم تبهره كل مظاهر الحياة التي تستعبد الإنسان وتطوعه لشهوات زائلة ومظاهر حضارية خاوية من الثراء الروحي العظيم

الذي يستشعره.. كانت الحياة هناك كما فهمها وخبر جوهرها عبارة عن ماكينة هائلة السرعة والأحداث تجتذب الإنسان هناك لتقرمه وتعصره وتمتص رحيق حياته. ربما منحه حرية الانزلاق نحو التحلل من كل القيم ونبضات الضمير ليستشعر السعادة للحظات تزول ويبقى بعدها الألم وأنات الضمير.

لقد حاول كثيراً خلال هذه الرحلة الممتدة عبر أربع سنوات أن يتوأم مع حركة الحياة هناك ليصبح عضواً فيها وجزءاً من ألتها الجهنمية.. لكن تكوينه العربي المسلم ونسيجه النفسي لم يمكنه من ذلك، ليس لأنه عاجز إنسانياً عن استيعاب وفهم جوهر حركتها وفلسفتها، بل لأن البناء الإنساني والتكوين الثقافي والحضاري والروحي له منفصل تماماً ومختلف تماماً أيضاً عن مكونات وبناء هذا المجتمع الغريب بمفاهيمه الحضارية والأخلاقية.. ربما تثير إعجابه في جوانب معينة كالتقدم العلمي والتكنولوجي إلا أنه يشعر بعدم جدوى كل ذلك إذا لم ينصو تحت مبادئ روحية سامية تستقي بها روح الإنسان الذي يتعامل مع هذه الفعاليات الحضارية وذلك النطاق التكنولوجي حتى ترتوي لتصبح كل هذه الفعاليات الحضارية ذات جدوى حقيقية في بلوغ الإنسان هدفه وهو السعادة الحقيقية.

في هذه الأمسية الربيعية وفي خضم التفاعلات النفسية وشجونها شعر برغبة جارفة في الاتصال تليفونياً بأسرته هنا في الوطن صبيحة أحد أيام الأحاد لفارق التوقيت، وجاء صوت شقيقته التي صرخت كعادتها من فرحتها بسماع صوت شقيقها حيث اطمأن منها على والدته التي كانت تؤدي صلاة العشاء ساعتها ووالده ذلك الرجل الذي كان مثلاً للأبوة في التضحية من أجل أسرته وحرصه على سعادتها. وبعد حديث قصير طلبت منه شقيقته التي كانت تجلس بجوارها في تلك اللحظات صديقته المقربة منها وزميلتها في الصف النهائي بالثانوية العامة أن يحدث صديقته التي وكزتها لتحادثه في أمر يهمها.

كانت صديقة شقيقته تلك الفتاة الحسنة التي يحسدها الجميع على جمالها وأناقتها ورقتها تريد منه أن يستفسر لها عن جهاز طبي صغير تحتاجه أمها المريضة بحساسية مزمنة في صدرها الأمر الذي يضطرم كثيراً إلى نقلها إلى المستشفى لتلقي العلاج حتى تستقر حالتها وقد أوصاها الأطباء بضرورة وجود هذا الجهاز بالمنزل لراحتها وحيث تستطيع الأم أن تستخدمه لوحدها حتى في غياب الزوج والأولاد. أرادت الصديقة أن تشرح له من المكالمات مواصفات الجهاز المطلوب، ومع انسياب صوتها سجل القدر توقيعه الأول على وثيقة عشق جارف ربط بين قلبين كان كل منهما يشعر مع تدفق الكلمات العادية بينهما بأن الطرف الآخر كان هو الغائب الذي يبحث عنه.. كان النصف الآخر الذي لا قيمة للحياة إلا به.

لقد شعر الشاب بأن قلبه كان يتقافز بين ضلوعه وكأن صوتها كان ينساب من خلال أذنه إلى قلبه مباشرة وكأنه معزوفة ملائكية لا قدرة لبشر على مقاومتها.

وكانت هي الأخرى ومع الكلمات الأولى في المحادثة قد شعرت بأحاسيس جارفة لم تخبرها ولم تذق طعمها من قبل، كادت تفقد سيطرتها على نفسها وخشيت أن ترتسم على وجهها مظاهر وملامح تلك الأحاسيس واستطاعت بذلك أن تنتهي المحادثة بعد أن حصلت على رقم هاتفه هناك بزيعة الحصول على كافة مواصفات ذلك الجهاز ثم معاودة الاتصال به، وساعدها على ذلك دخول الأم التي كانت قد أنهت صلاتها حيث اطمأنت عليه وطمأنته هي أيضاً على أحوال الأسرة.

ولم تغب أحاسيس الصديقة عن بال شقيقته التي أدركتها بحاسة الأنثى فذهبت بسرعة حيث أحضرت ألبوماً للصور يضم صور شقيقها ثم تبادلوا الضحكات البريئة حين دأبت شقيقته بكلمات ذات مغزى لا يخفي على الفتاة صديقته ولم تنس شقيقته أن تذكرها بفارق التوقيت وهي تودعها عائدة لبيتها.

* * *

كانت السيارة تشق طريقها في شوارع المدينة الهادئة والفتاة جالسة في مقعدها الخلفي مستغرقة في التفكير في هذا الشاب الدمث ذي الصوت الممتلئ بدفء الرجولة وعنفوان الشباب خاصة جملة الأخيرة التي قالها قبل أن تتولي هي مهمة إنهاء المكالمات حتى لا يفتضح أمرها أمام شقيقته حين قال لها: «بشري بالخير وإنشاء الله أبلغ شقيقتي حال حصولي على هذا الجهاز ولو كان عندي رقمك كنت سأصل بك مباشرة ثم دأبت قائلاً وإلا أحسن تأتي أنت بنفسك لتتسلميه.. وبالمرّة تشوفي أمريكا ونشوف صاحبة الصوت الحلو بعد».

كانت الكلمات ترن في أذنها متسللة إلى أعماقها لتدغدغ مشاعرها الغضة وكانت هي تحاول السيطرة على مشاعرها وتفكر في هذا الغازي الذي بدأ يطرق وجدانها دون مقدمات لمجرد حديث عابر في الهاتف وكان القدر كان على موعد معها. ولم تفق من استغراقها إلا بعد توقف السيارة أمام باب منزلها فترجلت وهي تحاول استعادة توازنها وطردها هذا التفكير من بالها وخاطرها.

نعم استطاعت استعادة توازنها وبدت طبيعية تماماً وهي تدلف إلى المنزل لتبشر أمها بموضوع الجهاز الطبي الذي سيوفر لها الراحة ويسعفها حين تهاجمها الحالة المرضية المزمنة، وقصت على أمها كيف أن شقيق صديقته يدرس في أمريكا وكيف ساعدتها صديقته المخلصة على الحديث إلى شقيقها حول هذا الموضوع فيكت الأم وأخذت تدعو لها.

كانت تلك الفتاة تعيش مع والدتها في منزلها الفسيح وحدهما بعد أن توفي والدها تاركاً ثلاثة من الذكور تزوجوا وعاش كل منهم في بيته الخاص، وكانت تلك الفتاة هي آخر العنقود كما يقولون في أمثالنا العربية وكان الإخوان الثلاثة في بداية الأمر وكما هي العادة يظهرون البر بأهمهم من خلال زيارات متقاربة ظلت تتباعد موافيتها شيئاً فشيئاً تحت أعدار معروفة وهي المشاغل الحياتية إلى أن اقتصر على زيارات قليلة وخاطفة تأدية واجب كما يقولون لكنهم وللحقيقة لم يقصروا في الواجبات المادية حيث كانت المادة أو تلبية الاحتياجات النقدية والمالية تتم على أكمل وجه دونما تقصير.. لكن يبدو أن هذا الجانب المادي لم يكن كافياً ليغطي غياب الأب وحنان الأخوة للفتاة.

وهل يكفي ذلك فتاة صغيرة في الثامنة عشرة من عمرها وهو عمر تكون الفتاة فيه في مجتمعنا العربي المسلم أوج ما تكون إلى التوجيه الحنون والمراقبة والرعاية؟.. أوج ما تكون إلى شقيق تفتح له قلبها.. يعطيها الثقة والحماية ليعوضها عن غياب الأب ومرض الأم حيث لا تداوي كل أموال العالم خدوش الروح وجروحها.

قد يصلح المال لتلبية مطالب الحياة المادية من شراء الأشياء الصغيرة والكبيرة من ملابس وطعام وسيارات وتغطية كل أوجه الرفاهية في الحياة.. لكنه وبكل تأكيد لا يصلح ولا يساعد لحظة اتخاذ قرار ما يتعلق بسعادة نفس أو شقائها.

إن النفوس الظمأى للرعاية والحنان كالصحراء التي تلهبها الشمس بقيظها المستعر لا يفيدها ما في باطنها من ثروات بل تبقى دائماً في حاجة إلى قطرات المطر تلتهمها للتربو وتنبت وتثمر وتعطي خيراً.

وقفت الفتاة أمام المنظره تتأمل حسننها وأنوثتها وهي لا تستطيع التحرر من الأفكار التي سيطرت عليها تجاه ذلك الشاب وكانت تفكر كيف تتصل به وتهاتفه.. إنها تريد أن تفتح خط الهاتف معه برغبة جارفة في الحديث إليه، لكن كان عليها أولاً أن تحصل على مواصفات الجهاز المطلوب من الطبيب كما أخبرته وعليها ألا تكون مندفة.. يجب أن تتحلي بالصبر فالغد قريب لكنها تشعر بأن هذا الغد بعيد بعد السماء عن الأرض.. جلست إلى طاولتها المنزلية تحاول مراجعة دروس الغد ولم تدر بنفسها إلا في ساعة متأخرة فهضت وأطلت على أمها مطمئنة عليها ونامت في هالة من الأحلام والأمنيات.

* * *

بعد محادثته الأهل وبعد استراحة هانئة نام خلالها بعمق انطلق الشاب بسيارته إلى بيت أحد الأصدقاء حيث كان على موعد مع مجموعة من أصدقائه لتناول طعام الغداء هناك كما هي العادة حيث الصحبة والجمع لشباب الوطن يلتقون حول غداء خليجي أسبوعي شهى تتوق له نفوسهم هناك في هذه البلاد البعيدة، وعلى الطريق السريع الذي يفصل بين مدينته والمدينة الأخرى التي سيلتقي فيها مع أصدقائه وإخوانه حيث لم تكن المسافة تزيد على مائة كيلو متر كانت مسجلة السيارة تصدح بإحدى أجمل الأغاني الخليجية، وكان الشاب غارقاً في تأملاته وسارحاً بفكره هناك بعيداً في الوطن وبخاصة في الفتاة صديقة شقيقته التي اخترق صوتها بنعومتها وعذوبته شغاف قلبه ليهزه هزاً دون أن يراها لكنها كانت تتمثل له من خلال صوتها وحديثها وكأنها النموذج المتكامل للأنثى التي يرغبها ويتمناها شريكة لحياته.

ومن العجيب أنه برغم مناخ الحرية الاجتماعية الإباحي ورغم مقابلته للعشرات من الفتيات زميلاته بالجامعة وخلال فعاليات حياته هناك إلا أنه يشعر شعوراً كلياً بأن مشاعره لم تهتز لأي منهن خلال هذه الرحلة الطويلة التي امتدت لأربع سنوات... ومن العجيب أيضاً أنهم ورغم جمالهن وما يتمتعن به من أنوثة لم يكن ذلك ليتجاوز عينيه ولم تستطع أي واحدة منهن أن تستحوذ على مشاعره.

كانت رؤيته ربما ناضجة وربما كانت أيضاً رؤية نابعة من تكوينه النفسي الشرقي العربي المسلم الذي يشعر بأن الفاصل الثقافي والنسيج النفسي والفهم العميق لقوة وأصالة وتجذر العادات والتقاليد كل ذلك كان يحول بقوة بين الانجراف نحو علاقة ارتباط أساسية وأصيلة وعميقة مع إحداهن.. لكن لا بد أن نؤكد التزام هذا الشاب بموروثاته الدينية الإسلامية والتي ربما كانت الحاجز الأقوى والعامل الأصيل في حمايته من انزلاقات أو علاقات غير أخلاقية.. كان منسجماً تماماً مع نفسه ومع ثقافته دوماً انعزال.. بل بالعكس كان ودوداً ومحروباً ومرحاً مع الجميع وكان منفتحاً في فكره من منطلق «لكم دينكم ولي دين» دونما إفراط أو تفریط.

وهنا لا بد من الإشارة إلى قضية مهمة جداً وهي أن التكوين الثقافي الجيد والفهم الحقيقي للموروثات الحضارية والتاريخية والروحية تدفع بالثقة والقوة إلى شرايين ونفوس الشباب أو أولئك الذين اختاروا أو كان عليهم أن يعيشوا تحت ظلال الحضارة الغربية، لأنه وبكل تأكيد إذا كان الأمر عكس ذلك أو بمعنى أوضح إذا لم يكن الإنسان العربي وهو يرنو ببصره ويهفو بروحه إلى بهارج الحضارة الغربية يحمل فهماً أو قدراً معقولاً من الفهم والمعرفة بتراته الثقافي والحضاري والروحي والتاريخي فإني أعتقد أنه ربما ساوره شعور مقبت وكره بالدونية أمام تلك البهارج البراقة الخادعة، وكم من ضعيف في هذه الجوانب ضاع مع التيار وتلاشى محطم النفس والحياة!!

* * *

وصل الشاب إلى البيت الذي يجتمع فيه أصدقاؤه وكانت كل الظروف مهياً لتجمع رائع وغداء خليجي شهى جمع الأصدقاء وأبناء الوطن في المنطقة وكانوا لا يتجاوزون العشرة بينهم اثنان من العرب غير خليجيين وبين السمر ولعب الورق والحديث وتناول القهوة العربية انقضي الوقت.

وفي العاشرة ليلاً بدأ الجميع ينصرفون على أمل اللقاء في الأسبوع القادم حيث وقع الاختيار عليه لإعداد غداء خليجي آخر، وبعد أن ودع أصدقائه انطلق عائداً إلى مدينته ليستعد لبداية أسبوع جامعي جديد... وعلى أنغام الموسيقى والإيقاعات الخليجية لشريط أغنيات مطربنا الرائع محمد عبده بدأ طريقه وهو يندندن وحيداً في السيارة إلى أن وصل إلى منزله ولم يكن يعلم أن هناك من اتصل به أكثر من مرة وترك رسالة على جهاز التسجيل الملحق بالتليفون.

وبعد أن أبدل ملابسه شعر بالزلزال وهو يتفحص جهاز التسجيل الملحق بالهاتف حين سمع صوتها ينساب عذباً شجياً في رسالة مسموعة أعاده مرات ومرات وحاول النوم فلم يستطع وإن هي إلا دقائق مرت كالدهر حتى دق الهاتف ورفع السماعة فإذا بها على الجانب الآخر تقول ضاحكة: «أنا أسفة احنا عندنا الحين المغرب ما أدري الوقت عندك الساعة كم». أجابها وقلبه يرقص طرباً: «أي وقت وأي ساعة دعي ذلك جانباً وطمنيني عى الوالدة إشلونها؟.. وكيف حالها؟».

لم تكن الفتاة في حاجة لأحاسيس إضافية ودكاء أنثوي لتعرف أن الشاب يشاركها مشاعرها وأن رباط القدر قد جمع بين روحيهما وقلبيهما منذ الحرف الأول للمكالمة الأولى.

وانتظمت مواعيد اللقاءات الهاتفية لتصنع أزوجة حب جارف بينهما، فقد وجدت فيه ملاذ الحنان والعاطفة الصادقة ووجد فيها فتاة أحلامه التي تستحق أن يشاطرها الحياة... وبالفعل فقد تحدث مع والدته ووالده حول الارتباط بها ولم يمانعا وزفت إليها شقيقته الخبر الذي حمل لها سعادة العالم... ولم تمض أشهر قليلة حتى وصل الشاب من بلاد الغربية ليبدأ حياته العملية في وظيفة جيدة وتوج كل ذلك بزفافه إلى رقيقة دربه وحببية قلبه وجمعهما منزل الزوجية.

انسابت الأيام والشهور لتكون سنوات ولم يقصر الشاب الذي أصبح أباً لأربعة أطفال أصغرهم عمره لم يكمل السنتين.. لم يقصر أبداً في حق زوجته أو أبنائه.. كان ملتزماً بدينه مجتهداً في عمله باراً بأهله وأصدقائه، وكانت الأيام تمضي في مسارها المقدر حتى جاءت لحظة ضعف تسلل منها الشيطان ليصنع ويتقن في صنعته ومهنته التي أجادها في تدمير وتحطيم وإعاس البشر.. إنها اللحظات التي تدفع القلوب الضعيفة في إيمانها إلى الانبهار بالزيف والشهوات الزائلة ويدفع فيها الإنسان أغلى وأعظم ما يمتلك ويبيعه بثمن بخس لا قيمة له ولا أثر. إنها مجرد خطوة أولى فقط يتخيل الإنسان أنها ستمر دون أثر أو عقاب وينسى في غمرة نزوته أن خطوة واحدة في بدايات الوحل ستنبعها خطوات إلى عمق ذلك الوحل قد يستحيل الرجوع عنها أو العودة دون أن يتلخ بقاذوراته ووسخها.. تلك حقيقة لا مرأى فيها. كان المكان أحد صالونات التجميل حيث تلتقي النساء ببعضهن دون سابق إنذار أو موعد، وفي فترة الانتظار كانت الزوجة تجلس تنتظر دورها لتصف شعرها وتتجمل استعداداً لحضور حفل زواج، وجاءت إحداهن وجلست بجوارها.. كانت تتخيل كالتواوس بالمجوهرات الثمينة التي تنزين بها في جيدها وأطرافها.. كانت تحفاً فنية غالية الثمن وكانت تلك المرأة ربما تجاوزت الأربعين من عمرها. وبطريقة مظهرية مبالغ فيها مدت يدها وهي تتأفف إلى حقيبتها الصغيرة لتخرج جهاز الهاتف الصغير وتدق رقماً لتحدثه وكان حديثاً خاصاً وخافئاً.

ثلث ذلك مقدمات عامة لحديث حول التجميل وأدواته ومواده الحديثة ثم عرجت المرأة على المجوهرات ونظرت نظرة فاحصة وباندهاش إلى جيد الزوجة الشابة وأخذت تطري جمالها وحسنها وشبابها وكيف يضيع العمر بين الأولاد وتربيتهم ومحدودية الدخل والحرمان من متع الدنيا وملذاتها.. أطل الشيطان برأسه وبدأ يمارس خطواته الأولى في غواية أنثى مهتزة الإيمان والثقة وانسابت المرأة التي سكن الشيطان لسانها وسخره لغواية البشر وإيرادهم موارد التهلكة تشرح لها كيف تحصل على ما تريد من متع وطبعاً كانت تضرب مواطن الثقة بالحياة في خبث وتمكن وانتهى الأمر في بدايته بتبادل أرقام الهواتف.. لقد أظهر الشيطان على لسان تلك المرأة مهارة بالغة في الإيقاع بتلك الزوجة عبر الخطوات الأولى وهي التعارف وحيث كان ينسج شباكه بمهارة ودقة من أجل ذلك.

وبدأ مسار الزوجة يأخذ منحى آخر بعد أن جلست تفكر في الوسواس التي أخذت تلعب بعقلها.. لقد تركت الدراسة ولم تكلمها بسبب الزواج.. وما هي في البيت تفني عمرها من أجل ماذا؟.. ولماذا لا تحاول الانطلاق في الحياة كتلك المرأة وغيرها من النساء اللاتي يعرفن كيف يحصلن على الكثير مما تنوق نفوسهن إليه من سفر وتنقل وامتلاك المجوهرات الثمين وغيرها؟

لم تفكر الزوجة بعقلها ولم تفهم أن قيم الحياة الفاضلة هي أثنى بملايين المرات من كل مجوهرات العالم ومتعه. ولم يقترب عقلها أبداً أو لم يحاول الاقتراب من الله ليكون الرضا ثم تكون الفناعة التي تنوجهها تربية صالحة لجيل صالح.. لم تحاول أبداً أن تقترب بعقلها من النتائج المأساوية المدمرة وأبعادها المهلكة ليس عليها وحدها بل على الكثيرين من حولها ممن أحبوا وهبوا حياتهم أيضاً من أجل إسعادها.

توطدت العلاقة الوثيقة بالمرأة ولم تتوان المرأة الشيطان عن فعل كل ما يمكن لكي تضمها إلى نهجها بكل سبل الغواية والإغراء.. كلمات معسولة تزين الحرام، وكلمات أخرى تخفف بل وتمحي كل المحاذير، ونفس ضعيفة الإيمان جاهزة للتلقي والاستيعاب وخداع النفس. كانت الزوجة وهي مقبلة على السقوط تمد قدماً وتوخر الأخرى الأمر الذي كان بلا شك يعبر عن حالة من الصراع النفسي المحتدم الذي كان يتأجج كلما اقتربت خطوة من حافة الهاوية لكن يبدو أن الرغبة في السقوط كانت أقوى من الوازع الديني والأخلاقي.. لقد استغل الشيطان بكيدته وغوايته هذا الضعف في الوازع الديني والأخلاقي لينفذ من خلاله ويتسلل للقضاء على مكامن هذا الوازع لينجح في النهاية ثم ليضحك وهو يقول متهمكاً: «ما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي».

وجاءت لحظة السقوط المدوي والمخيف حيث دعته المرأة لجولة في المحلات بإحدى الأسواق ولم تمنع وخرجت في أبهى زينتها مع المرأة التي تلبسها الشيطان وجعل منها إحدى جنوده، وفي السيارة أخذت المرأة تطري جمالها وأثوتتها ثم أخذت تحدثها عن الحفلات الخاصة والجلسات اللطيفة التي تجمعها بصديق كريم وطيب القلب في منزل خاص وفي جو رومانسي ولا شيء أكثر.

ثم قالت لها: لماذا لا تأتين معي مرة؟ وبابتسامة خبيثة أردفت: «اعتبريها دعوة مني». ضحكت الزوجة وهي مندھشة ثم قالت: «أخشى أن يعلم زوجي بالأمر ولو علم فستكون كارثة ولا تنسي أنني أم وزوجي مخلص لي تماماً.. إنه رجل مثالي».

قالت المرأة بلسان الشيطان وهي تعلم أن مكامن المقاومة ضعيفة وأن احتمالات الاستجابة مضمونة وما قولها سوي تعزيز لمكانتها: «إذا لم تكن لك رغبة في تلبية دعوتي فلك ما تشائين.. لكن صدقيني ستكون جلسة رائعة ستعجبك كثيراً وإذا لم تعجبك فلن نكررها».

صمتت الزوجة والمرأة الشيطان ترنو إليها بطرف خفي وهي تعلم أنها من داخلها ترغب في ذلك.

وإن هي إلا لحظات حتى توقفت السيارة أمام مدخل السوق وهناك في أرقى المحلات التي تباع المجوهرات أخذتها المرأة الشيطان عمداً ودلفت إلى داخل المحل لمشاهدة المجوهرات الغالية والتمينة وأخذت المرأة الشيطان تطلب من البائع تجربة بعض القطع الغالية من المجوهرات الثمينة المطعمة بالأحجار الكريمة.

وسال لعاب الزوجة لهذه القطع الغالية خاصة حين وضعتها المرأة الشيطان على جيدها أو في يدها وأصابعها، وأخذت تنتقل بها من محل إلى آخر من تلك المحلات الفخمة التي توجد بها الأشياء غالية الثمن.

لقد أخذت الزوجة تقارن بين ما في يد المرأة الشيطان وما في يدها ثم انتقلت لتقارن بين ما في تلك المحلات من قطع باهظة الثمن وما في يد المرأة، وضرب الشيطان ضربته حين قالت المرأة للشيطان للزوجة: «هل تعتقدين أنني دفعت شيئاً ثمناً لما أملك؟».

ثم أردفت وهي تهز رأسها وتبتسم: «كلها هدايا خاصة والمهم ذكاء المرأة». ولم تنته الليلة إلا وكان الوعد بسهرة لطيفة في جلسة خاصة والهاتف بينهما يقرب المسافات والأزمنة.

انطلقت المرأة الشيطان إلى هدفها بكل دقة وتصميم ومهارة خصوصاً في حبك ونسج شباكها حول الزوجة الشابة ضعيفة الإيمان والإرادة يشدها ويجذبها إلى الهاوية بريق المجوهرات وحب المال ولم تعلم أنه عرض زائل القيمة له مقارنة بما يقابله من سقوط مربع في هاوية ليس لها قرار سوي الحطام والدمار. ولم يمض أسبوع حتى كان كل شيء مرتباً من جانب المرأة الشيطان، وكان اللقاء الذي بررته الزوجة لزوجها بحضور أحد الأعراس الخاصة بابنة إحدى الصديقات، وجاءت المرأة الشيطان بنفسها في سيارتها بعد الغروب وكانت الزوجة قد تزينت في أبهى صورة وهناك في إحدى المنازل الصغيرة الأنيقة كانت هناك الهاوية التي بدأ فيها السقوط.

* * *

لم يلحظ الزوج في بداية الأمر تغييراً ملحوظاً في سلوكيات زوجته سوى كثرة استخدام الهاتف وهذا أمر عادي فهو الوسيلة السهلة والميسرة والسريعة للتواصل مع الأهل والمعارف وقضاء الحاجات.. ولكنه لاحظ مؤخراً تغييراً في معاملة زوجته الأمر الذي لفت انتباهه شيئاً فشيئاً ثم تطور الأمر إلى كثرة الخروج وإدمان استخدام الهاتف حتى ساعات متأخرة من الليل والطريقة التي بدأت تؤثر حتى على الأولاد فلم تعد تلك الأم التي تهتم بأبنائها وزوجها.. لكنه لم يكن يتخيل مجرد التخيل أن الأمر سيصل إلى درجة الخيانة والسقوط في مهاوي الرذيلة ولذلك لم يتصرف بشكل مناسب، ويا غافل لك الله كما يقولون.. لكن لكل قصة نهاية والخيانة إحدى هذه القصص التي لا بد أن تتوجها نهاية تناسب مع قدرها وانحطاطها.

فخالق سبحانه وتعالى يمهّل ولا يمهّل.. يمهّل المجرم ربما يعود إلى جادة الصواب وربما يردعه وازع من دين أو ضمير. وعين الله سبحانه وتعالى لا تغفل ولا تنام وباب التوبة مفتوح على مصراعيه لمن أراد الولوج والاعتسال والتطهر والتوبة وسبحانه الذي وصف ذاته {غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ} {غافر: 3}..

لكن دعونا قبل أن نصل إلى النهاية نستعرض هذه المأساة الإنسانية نتساءل ونحن بشر لنا قلوب وعقول ومشاعر وأحاسيس: ألم يستيقظ ضمير هذه الزوجة؟ وكيف كانت مشاعرها خلال فترة الانحراف والسقوط رغم أنها حققت رغباتها في تحقيق ما أرادت؟ هل كانت تشعر بالسعادة والراحة النفسية؟ وهنا نتوقف لنغوص قليلاً في أعماق النفس البشرية التي أعماها الطمع والجشع والرغبات الزائلة عن حقيقة الفضيلة والتمسك بأهداب الدين والعقيدة.

فحين بدأت مرحلة الاهتزاز والضعف كانت في قرارة نفسها تتخيل أنها ستفوز بما تريد دون أن تخسر شيئاً أو تدفع الثمن من شرفها ودينها وأخلاقها ومستقبل أسرتها أو هكذا كان الشيطان يخيل لها ويزين.. كما كانت تتخيل وتتوهم أن سقوطها مرة طبعاً بعد أن سقطت يمكن أن ينتهي وتتوقف وتثوب إلى رشدها.. لكنها كانت تجد نفسها المرة بعد الأخرى مضطرة للسقوط.

ولأن لحظات السعادة المعدودة تنتهي فور الانتهاء من تحقيق الرغبة ويبدأ الألم الداخلي غير المرئي وعذاب الضمير في التحرك داخل النفس ليتحول إلى جذوة متقدة تشعل جوانب النفس ناراً لا يمكن أن يخمدتها سوى مواجهة النفس بالحقيقة المرة ومن ثم التطهر.. تطهر النفس بالدرجة الأولى بالتوبة والندم والاعتسال في رحمة الله والنهل منها بالاستغفار ومن ثم العودة. لقد كانت الزوجة تعيش عذاباً قاتلاً وجحيماً لا يطاق ومعاناة هائلة لكنها ولعدم تحملها لتخيل ذلك وخوفها من آثاره كانت تمنح الشيطان الفرصة بعد الأخرى متوهمة أن ذلك يريحها وينسيها ويخفف عنها.. إنها في نهاية الأمر كانت عاجزة عن مواجهة حقيقة نفسها لبشاعة ما كانت الحقيقة ستظهره بجلاء لا يقبل الشك أو التأويل واقتربت ساعة النهاية.

أتي الزوج من عمله ظهراً وبعد تناول الغداء مع زوجته وأبنائه دخل ليأخذ قسطاً من الراحة وفي الرابعة والنصف نهض من فراشه ليغتسل ويصلي العصر وكانت الزوجة في ردهة المنزل جالسة تشاهد التلفاز وجوارها جهاز الهاتف وبعد الصلاة بدل الرجل ملابسه استعداداً للخروج ومتابعة عمله الخاص ثم خرج من غرفته إلى الردهة مبتسماً وتحدث قليلاً إلى زوجته تعليقاً على البرنامج التلفزيوني ثم تعلق به الصغير يريد شراء بعض الألعاب فقبله على جبهته وداعبه قليلاً ثم نظر إلى زوجته قائلاً: «حبيبتي لن أتأخر الليلة، أمامي بعض المهام البسيطة وسأعرج على صديق لي لم أره منذ وقت طويل هاتفني اليوم وسأذهب لزيارته ثم أعود فوراً.. ألا تريدني شيئاً؟».

فأجابته بدون اكتراث: «لا شكراً، وتستطيع أن تأتي متأخراً لأنني مضطرة للخروج لزيارة بعض صديقاتي». فنظر إليها عاتباً وقال وهو يبتسم: «أراك تغيرت كثيراً».

فقال له ممتعضة وعلامات الضيق على وجهها: «أوف ملل في ملل وأرجوك لا تضايقتي بهذا الكلام».

فقال لها في لهجة عتاب رقيق والابتسامة لا تزال على وجهه: «ياه.. إلى هذا الحد أصبحت تشعرين بالملل معي؟». ثم أردف قائلاً: «ألم أكن على حق حين قلت لك بإنك تغيرت كثيراً؟». ثم هز رأسه وهو يقول: «أين الأيام الخوالي وحلاوتها... هل تذكرين أيام الحب الأولي بعد تعارفنا؟». فقاطعت قائلة: «أرجوك روح اذهب لعملك حتى لا تتأخر».

كانت متأففة من حديثه فأدار ظهره وخرج ليستقل سيارته ويذهب وبعد مغادرته بحوالى ربع الساعة تذكر أنه نسي شيئاً فعاد بسيارته وأوقفها أمام باب الفناء الخارجي للمنزل.. وترجل منها ثم دخل إلى الفناء متوجهاً إلى باب المنزل الذي كان كالعادة مردوداً دون إغلاق ففتحه بهدوء وحين أصبح في الردهة سمع ضحكة عالية في الغرفة الرئيسية فتوقف أمام بابها الذي كان موارباً وهناك سمع حديثاً شعر بأنه حديث غير عادي كانت فيه زوجته تتحدث وكأنها تتحدث مع امرأة أخرى فدفع الباب برفق.. وحين رآته زوجته أخذتها المفاجأة وتغير لونها ثم أغلقت الهاتف وشعر بأنها ارتجت حين فوجئت به فابتسم لها وأخبرها أنه نسي شيئاً جاء ليأخذها وأنه وجد الباب موارباً فدخل. تماسكت الزوجة وأخذ الزوج ما يريده من الغرفة ثم غادر المنزل.. لكنه غادره وطوفان من الوسواس يهاجمه.

لقد أخذ يربط الأحداث ببعضها من تغير عادات الزوجة ومزاجها وكثرة خروجها وتحديثها المتواصل إلى درجة الإدمان في الهاتف وتلك الاتصالات التي تتم من قبل متحدثين يغلقون الخط بمجرد سماع صوته. كان رأسه وقلبه يغليان تحت وطأة الوسواس والهواجس والأسئلة تتوارد متسارعة في نفسه.

هل يمكن؟... هل يعقل؟... عشرات من علامات الاستفهام وأخيراً تماسك نفسياً وبدأ يفكر بعمق وتعقل حول النتائج ولكن قبل ذلك لابد من التأكد وبسرعة للاطمئنان. هناك في عمله الخاص وعلى طاولة مكتبه جلس ومزاجه متغير تماماً لكن كان عليه حسبما توصل هو إلى قناعة ضرورية وهي أخذ الحيطه والحذر وأن يبدو طبيعياً تماماً فليس من السهل أن يلقي الإنسان تهمة هائلة القبح كذلك على زوجته.. وشريكة حياته.. وأم أطفاله.. لابد من الدليل الدامغ الذي لا يقبل الشك أو التأويل.

أمسك بالهاتف وتحدث مع أحدهم على الجانب الآخر يستشيريه في كيفية تسجيل المكالمات بهواتف المنزل بحجة أن الخادمة تدور حولها بعض الشكوك وكانت الخادمة بريئة تماماً بالطبع، وخلال وقت قصير كان أحد الأشخاص يتناول معه قهلاً من الشاي وقد وضع أمامه على الطاولة بعض القطع البسيطة مع جهاز صغير للتسجيل وأفهمه كيفية تركيبها ثم انصرف.

رفع الزوج سماعة الهاتف ليري إن كانت زوجته قد غادرت المنزل وبالفعل لم يجدها فانطلق بسيارته تجاه المنزل وخلال دقائق كان وبكل هدوء قد أتم عمله ووضع المسجل في مكان لا يخطر على بال زوجته أبداً وكان من النوع الذي يعمل أوتوماتيكياً مع بدء المحادثة ثم غادر منزلة ثانية ليمضي سهرة طويلة مع بعض أصدقائه الذين لم يره منذ وقت طويل وتعهد أن تطول السهرة حتى الثانية صباحاً. وفي تلك الليلة عادت الزوجة إلى المنزل بعد الثانية عشرة بقليل ولم تحاول حتى معرفة مكانه بالاتصال به عبر جهاز البلبل. كان الزوج قد هدأ تماماً وارتاحت نفسه بعد أن فعل بجهاز التليفون ما فعل ورغم ملاحظات بعض الأصدقاء عن تغير مزاجه وكثرة سرحانه أثناء السهرة إلا أنه كان مرتاح النفس وهادئ البال، وكان يدعو الله أن يخيب ظنه وألا تكون الوسواس هي الحقيقة المرة.

وبعد أن انقضت السهرة الطويلة مع الأصدقاء انطلق بسيارته باتجاه منزله وهناك في فناء المنزل أوقف سيارته وبهدوء دخل إلى المنزل فوجد زوجته تحدث إحدى صديقاتها بالهاتف فبدل ملبسه وجلس في الردهة قليلاً ثم قام فتوضاً حيث صلي ركعتين لله وبعد الصلاة كانت زوجته قد أنهت محادثة صديقتها وأخذت تنظر إليه حيث لاحظت أن ثمة تغييراً قد طرأ عليه فحاولت مداعبته قائلة وهي تبتسم: «أراك مهموماً قليلاً.. هل أغضبتك من سهرت عندها الليلة؟».

فتصنع ابتسامة واسعة وهو يقول: يا ليت. فقالت: هل تناولت عشاءك؟ فهز رأسه مجيباً: نعم وكان عشاءً راقصاً.

ثم تصنع الضحك وبادلتته ضحكة مصطنعة ثم أوي إلى فراشه. ونام نوماً عميقاً ربما لم يستشعره من قبل وهذا هو الأمر العجيب.. لقد كان في ظرف ربما من المستحيل أن ينام الإنسان في ظله لكنه نام وترك الفخ يعمل تلقائياً وسيأتي الغد وإن الغد لناظره قريب.

كانت الزوجة لا تزال نائمة حين غادر الزوج فراشه في السابعة والنصف صباحاً وهو يشعر كأنه نام يوماً كاملاً وألقي بجسده تحت ضغط الماء المندفح من الدش ثم توضأ وخرج من الحمام نشيطاً حيث أدى الصلاة متأخرة عن مواعدها وبهدوء التقط الشريط من المسجل ثم غادر منزله إلى مكتبه الخاص حيث استمع إلى الشريط.. وهاله ما سمع.

كانت خيانة صريحة لا لبس فيها ولا شك وكان وقعها كالصاعقة بسبب تفاصيل يترفع القلم عن تدوينها.. ووضع رأسه بين يديه والشريط أمامه وتوالت الصور والمشاهد.. الأسرة.. الأبناء ومستقبلهم.. مستقبل القادم الجديد القابع هناك في حشاها والتي أوضحت صراحة من خلال المحادثة أنه ليس ابنه.

لقد اعترفت بذلك دون أن تدري وهي تتحدث مع صديقتها وكان ذلك مسجلاً بصوتها وبالتالي كان دليلاً لا يقبل الجدل. كان الزوج في حالة هلع وعلى شفير الانهيار في اللحظات الأولى لكن رحمة الله ظلته وخففت من وقع الصدمة الأمر الذي جعله يفكر كيف يعالج الأمر.

وبالطبع لم يكن هناك من حل سوي الطلاق ولكن لابد أن يسبق ذلك أمر مهم وضروري وهو المواجهة .

وضع الشريط في جيبه ثم غادر مكتبه وكانت الساعة تقترب من العاشرة بعد أن أمضي ما يقارب الساعة وهو أسير التفكير العميق في أبعاد المسألة كان خلالها يحاسب نفسه ويبحث عن أي شائبة تقصير من جانبه في حقها ولم يجد شيئاً يستحق أن يتوقف عنده.. وكان كل ما يشغل باله هم الأولاد.. والطعنة الغادرة التي تمزق مشاعره وتهين إنسانيته هي الطفل القادم في حشاها كما ذكرت في حديثها. انطلق الزوج إلى منزله بعد أن عرج على محل تسجيلات ونسخ من الشريط الأصلي نسختين إضافيتين.

كانت الزوجة تفكر بينها وبين نفسها إذا كان الزوج قد لاحظ شيئاً قد يلفت انتباهه حول سلوكها وكانت تشعر بقلق حول هذا الأمر خاصة أنها لاحظت تغيراً جوهرياً في مزاج زوجها النفسي خصوصاً خلال اليومين الأخيرين وحولت أن تجد سبباً مقنعاً لتغير مزاجه النفسي كوجود

مشاكل في العمل أو مشاكل مالية فلم تجد شيئاً ذا قيمة فنهضت من فراشها بعد ذهابه لعمله مباشرة حيث لم تستطع النوم كعادتها بعد أن اطمأنت على ذهاب أولادها مع السائق لمدارسهم.

أخذت تحاول إخفاء قلقها من خلال الاهتمام والعمل في المنزل حيث استدعت الخادمة وأخذت بمساعدتها في تغيير وتبديل الفرش وتنظيم الأشياء داخل الغرف وهو أمر كان نادر الحدوث حيث لفتت الخادمة انتباهها إلى وجود جهاز التسجيل مخبأ بعناية في مكان لم يخطر على بالها، وهنا توقفت وقد دارت بها الدنيا فجلست على أقرب مقعد حتى لا تسقط من هول المفاجأة.

شعرت وكأنها تسقط من حالق وتهوي إلى قرار سحيق حتى كاد قلبها يتوقف.. إنها النهاية.. إذن.. لقد تحققت مخاوفها الآن.. التقطت الشريط بسرعة من المسجل وبالطبع كان خالياً.. اطمأنت قليلاً وبدأت الحقيقة الغائبة تظهر شيئاً فشيئاً إلى أن أضحت كضوء الشمس في رابعة النهار.

بدأت تترك الهاوية التي قفزت إليها هي بنفسها وبدأت تتخيل حجم المأساة وتمنت في تلك اللحظات أن يعود الزمن إلى الوراء لترفض الانزلاق إلى تلك الهاوية وتذكرت أمها التي قضت منذ عدة سنوات.. كما عاد سيناريو الأحداث منذ كانت صبية مراهقة تتطلع إلى فارس يحميها من هجير الزمن وقسوة الأيام إلى أن تحقق ذلك باقترانها من هذا الشاب الذي أحبته بكيانها وعشقه قلبها ثم داسته في النهاية بأقدامها.

انطلقت الزوجة تجهش في بكاء مريير والخادمة تحاول تهدئتها وفي هذا الوضع المأساوي دخل الزوج إلى المنزل ليبري امرأة منهاره أمامه وبجوارها جهاز التسجيل الصغير.

ابتسم الزوج ابتسامة بائسة وهو ينظر إليها حيث أخذت تتوسل إليه أن يحاول أن يفهم فأخرج نسخة من الشريط المسجل عليه جرم خيانتها ثم وضعه بهدوء في المسجل وقد وضعت رأسها في ظهر المقعد وفجأة قامت من جلستها ثائرة كالنمرة في حالة أشبه بالجنون حيث أخذت تقذف كل شيء لتحطمه في المنزل وتركها تماماً حتى سقطت على الأرض مغشياً عليها. وبهدوء الرجال أمر الخادمة أن تسعفها برش الماء على وجهها ثم نادي على السائق ليوصلها إلى بيت أهلها ثم قال لها: «من أجل أبنائي سأبقي الأمر سرّاً بيننا حفاظاً على مشاعر الصغار الذين لا ذنب لهم وحرصاً على مستقبلهم.. خذي ما تحتاجينه من المنزل قبل مغادرتك.. أنت طالق.. طالق.. طالق.. وإليك هذه النسخة من الشريط وهي هديتي الأخيرة.. أرجو أن تعيدي الاستماع إليه ثم احرقيه...»

* * *

ما إن أنهى صديقي سرد هذه القصة المأساوية حتى كان العرق يتصبب من جسدي كما لو أنني قفزت بملاسي داخل بركة للسباحة وتذكرت قول الحق سبحانه وتعالى { أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (60) وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (61) وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (62) هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (63) اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (64) الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَنصِتُهُمْ أَلَمْ نَجْعَلْهُم بَشَرًا مِثْلَ الْبَشَرِ (65) } (يس: 59-65)

* * *

حين اقترب آدم وزوجه حواء خطيئتهما الكبرى في الجنة التي أسكنهما الله بعد أن أغواهما الشيطان وزين لهما سوء عملهما فأكلا من الشجرة التي حرم الله كانت النتيجة أن أخرجنا من جنة الله لتعيش البشرية في كنف الشقاء والعذاب إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وينادي الحق جل وعلا { لمن الملك اليوم } وترد الذات على الصفات فائتة { لله الواحد القهار }. وفي ذلك اليوم { يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } (الحديد: 12). وفيه تسمع : { يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ (13) يُنَادُونَ لَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ (14) فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ } (الحديد: 13 - 15).

لذلك لا شك أن آدم وحواء عليهما السلام كانا شريكين متضامنين فيما حدث من خطيئة، ولا غرو في ذلك؛ فحواء من ضلع آدم وكل ابن آدم خطأ وخير الخطائين التوايين. وكما عرضنا لسقوط المرأة وجريمتها في حق نفسها.. وزوجها.. وأبنائها ومستقبل أسرتها.. فإننا نعرض نموذجاً من جريمة الرجل وسقوطه حتى لا نتهم بالتجني على المرأة فالكل أمام الله سواء.

* * *

هناك في إحدى الضواحي الهادئة على أطراف المدينة كانت الفيلات الصغيرة الأنيقة ذات الألوان البيضاء بأسقفها القرميدية البنية متراسة داخل السور ذي البوابات والمداخل المتعددة.. الأمر الذي جعلها تشكّل جزءاً منفصلاً عن المدينة بضجيجها وحركتها فتميزت بالهدوء حتى ليخيل لمن يمشي في شوارعها أو ينظر إليها خاصة في فصل الصيف بقيته ورطوبته العالية أنه في منطقة لا يسكنها بشر.. فلا صوت أو حركة سوى صوت أجهزة التكييف التي لا تتوقف ليل نهار.

لم تكن ثمة علاقات بمعناها الاجتماعي تربط بين السكان الذين كانوا ربما بسبب قصر مدة العيش هناك نسيباً وربما بسبب نمط الحياة نفسه غير متمازجين أو لنقل غير متناغمين ثقافياً واجتماعياً مما فرض نوعاً من العزلة الإجبارية النسبية بينهم اللهم إلا معرفة بعض الوجوه المألوفة بموجب الالتقاء أثناء الدخول أو الخروج من المنازل أو عبر البوابات الخارجية لسور هذا الحي المنعزل الهادئ.

وهناك في إحدى هذه الفيلات كانت تسكن إحدى هذه الأسر المكونة من الزوجة الشابة وزوجها وطفليها الصغيرين.. كانت أسرة تخيم عليها السعادة وتعيش في هناء محلقة في آفاق مستقبل جيد لأطفالها.

كان رب الأسرة من النوع المثالي في حياته وملتزمًا التزامًا مبدئيًا بسلوكياته المستقيمة برعاية زوجته.. تلك الشابة التي أحبها من كل قلبه وكيانه فمألت عليه الدنيا بالسعادة وأعطاهها هو من ينابيع حنانه وحبه ورعايته.

ولم لا ولم ير منها يوماً ما يسئ مشاعره كما لم ير منها أي تطلمات حتى ولو بالأحلام ترهقه أو تضطره إلى الاستدانة.. بل وكانت دائماً زوجة صالحة راضية تؤمن إيماناً لا يتزعزع بقداسة البناء الأسري السليم وتعرف تمام المعرفة واجباتها كزوجة وأم، الأمر الذي جعلها تصنع من الحياة أهزوجة سعادة ورضا يتمناها كل زوج في شريكة حياته.. لكن دائماً يظل الشر كامناً على قارعة الطريق ربما وفي نفوس البشر عادة ما يلعب الشيطان لعبته برؤوس الضعفاء من بني البشر الذين يندفعون بزيف بهرجة.

وهناك على الجانب الآخر والمقابل كان الشيطان يعد عدته للانقضاض على تلك السعادة ليدهرها، وهنا تتوقف وقفة سريعة لنحاول الغوص في أعماق النفس البشرية قدر استطاعتنا لنتمتع في دواخلها وكيف تتساق إلى غواية الشيطان طائفة مختارة.

ربما كان عدم الرضا والتطلع المرضي المعيب الذي يدفع بها إلى حافة الهاوية.. وربما الضعف الإنساني خاصة في الجانب الإيماني، وللحقيقة فإن الجانب الإيماني ما هو إلا السياج الحقيقي الذي يحول بين الإنسان وسقوطه.. ليس ذلك فقط بل هو المنقذ الذي يعيد الإنسان إلى صوابه واستقامته حتى بعد سقوطه.

إنه الباب المشروح دائماً الذي يستقبل المكلومين الذين أودي بهم ضعف إيمانهم إلى قرار الشيطان والسقوط في شبابه، ولنقل أيضاً إن عدم الرضا أو التطلعات المرضية من ناحية وضعف الإيمان من ناحية أخرى يجسدان معاً المدخل الحقيقي للشيطان الذي يزين بأساليبه الخطيرة كل دروب السقوط ليهوي بها الإنسان ثم يتركه الشيطان وهو يضحك بملء فيه ساخراً مستهزئاً ليجتث عن ضحية جديدة.

على الجانب الآخر المقابل كانت تسكن أسرة مكونة من رجل وزوجته وثلاثة أبناء أكبرهم في الرابعة عشرة من عمره وكانت الزوجة تعيش في ظل زوج دائم التأفف من الحياة والشكوى من واقعه الذي يعيشه وكان دائم التشاجر مع زوجته والسهر الدائم مع رفاق السوء ومن هم على ساكنته.

كان يشعر شعوراً كريهاً بأن ما يمتلكه الآخرون يجب أن يكون له ومن حقه هو فقط رغم أن الله تعالى منّ عليه بزوجه طيبة طيبة وبأبناء ثلاثة ووظيفة جيدة تدر عليه دخلاً معقولاً يكفيه ويكفي أسرته.. لكنه ولسلوكياته المنحرفة لم يكن بالطبع يكفيه وأصبح بالتالي مدرجاً ضمن العملاء المدينين للبنوك ولآخرين إلا أن المشكلة الحقيقية كانت تكمن ليس فقط في تكوينه النفسي أو في قناعاته الخاطئة بل كانت حقيقتها تكمن في الدائرة الإنسانية التي تحوطه من رفقة السوء التي لم يكن لها من هم سوى إشباع نزواتها من خلال المتع الحرام غافلين عن الأبعاد والنتائج المأساوية لهذه السلوكيات وتلك الرغبات.

لم يكن أبداً يدور من حديث حول القيم الروحية أو الإنسانية العليا ربما تراهم يؤدون الصلاة ولكن أي صلاة هذه التي لا تنهي عن الفحشاء والمنكر.. ألم يسأل أحدهم نفسه يوماً:

هل اهتم بزوجه وأولاده؟.. هل جلس معهم ليناقتشهم مشاكلهم أو ليساعدهم في أمر من الأمور العالقة التي يصعب عليهم تصريفها؟.. هل اصطحب زوجته وأولاده مرة لنزهة بالمدينة أول لعشاء في أحد المطاعم؟.. هل تابع أبناءه بالمدارس واستفسر عن أحوالهم؟

أبداً.. ربما لم يحدث هذا، بل ربما لا يدري كيف تسير حياة أسرته متخيلاً أنه مادام قد وفر لها معيشتها من طعام وشراب ومصاريف فإن كل شيء سيصبح على ما يرام ونسي ناموس الحياة الحقيقي وهو شريعة الإسلام الغراء التي لم تترك شاردة ولا واردة فيها إيساد للبشر إلا وبيّنته ووضحته، وهنا تتوقف قليلاً أمام عظمة هذه العقيدة نستخرج معاً كنوزها الثمينة التي أضاعت الدروب المظلمة فكانت هدياً ونوراً.

فلأسرة في الإسلام مكانة جليلة وعظيمة بدءاً من علاقة الرجل بزوجه ولنقرأ معاً قول الله تعالى ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ (الروم:21).

حيث العاطفة الفطرية بين الرجل والمرأة موجهة لتحقيق السكينة النفسية في علاقة سامية سداها المودة ولحمتها الرحمة لتزداد وتعظم بإحباب الأبناء وتربيتهم ولا يتحقق ذلك إلا ببناء الأسرة وظلالها الحانية الدافئة.

وفي تقرير الإسلام لأهمية العلاقة الزوجية وتوثيق عراها يقول تعالى ﴿وَأَخَذْنُ مِنْكُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً﴾ (النساء:21).

ثم يأتي دور مسئولية المسلم نحو أسرته حيث يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً﴾ (التحریم:6).

وكذلك ينبه القرآن الكريم إلى صلاح المجتمع كله عبر صلاح الأسرة باعتبار أن الأسرة هي خلية في البنيان الاجتماعي وقطعة من جسد المجتمع حيث يتضح ذلك ويتجلى في الدعاء العظيم الذي يوجهه المؤمنون الصالحون فقد قال تعالى في محكم التنزيل {وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا} (الفرقان: 74).

وحين جاء الإسلام كانت القبيلة آنذاك تعتبر أساس المجتمع وركيزته حيث تتضام الأسرة وتتلاشى في كيان القبيلة.. لكن الإسلام ببناموس هديه وإصلاحه للبشرية ركز على الأسرة لا على القبيلة ويبين في اسمي تشريع أحكام قيام الزوجية وانفصامها محددًا بحقوق وواجبات كل من الزوج والزوجة والآباء والأمهات والأبناء وذوي القربى.. كما يبين أحكام الموارث والوصايا مؤكداً بكل ذلك أن وحدة الخلية الأساسية في بناء المجتمع هي الأسرة التي تتمتع في ظلال العقيدة الإسلامية السمة برعاية الشريعة والدولة.

وانطلاقاً من شمولية العقيدة الإسلامية وعظمتها فإن الإسلام قد ضمن حق التزوج للرجل والمرأة في السن المناسبة مؤكداً وجوب رضي الطرفين رضاً كاملاً لإبرام عقد الزواج.. كما حث الإسلام على الزواج مبسراً سبيله ومقررأ في نفس الوقت حق المرأة في المهر مع النصح والتوجيه بعدم الغلو فيه وبالتيسير ما أمكن حتى لا تكون هناك عقبة في سبيل إتمامه وبالتالي قيام الأسرة.

وهنا يقول تعالى {وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدَقَاتِهِنَّ بَخْلٍ فَمِنْ طِبْنٍ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا} (النساء: 4)

ويقول تعالى أيضاً في سورة النساء {فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَلَهُنَّ أَجُورُهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ} (النساء: 24).

وكان الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم يزوج الرجل بالمرأة حتى بالقرآن إذا كان الرجل معسراً حيث يعلمها الرجل القرآن، وأكرم به من مهر.

ولم يتوقف الأمر على ذلك بل ضمن الإسلام حقوق المرأة المادية والمعنوية كاملة أثناء قيام الزوجية وبعد انفصامها وعرضت آيات القرآن الكريم لرضاء المرأة ومشاورتها في شئون الأسرة كما عرضت للوفاء بحاجاتها المادية ولتأمل قول الله تعالى {وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُرْضِعَهُنَّ وَالرِّضَاعَةُ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ وَبَوْلُهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} (البقرة: 233)

هكذا نظم الإسلام بشريعته السمحاء العلاقة بين الجنسين وبين الأبناء والآباء في اهتمام عظيم بالأسرة هادفاً لصنع مجتمع سليم وموصل إلى سعادة البشرية.

لكن المشكلة العظيمة أن أمثال هذا الرجل وهو زوج وأب لا يفهم ذلك ولا يريد أن يعقله هو ومن على شاكلته متخيلين السعادة في الحياة بما يزينه الشيطان من لهو ومتع حرمها الإسلام بجلاء ووضوح، إذ يقول الحق جل وعلا في سورة ص { هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاعِينَ لَشَرَّ مَابٍ (55) جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا فَيَنْسُ الْمَهَادُ (56) هَذَا فَلْيُدْفُوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقُ (57) وَآخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ (58) هَذَا فَوَجَّ مُعْتَجِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ (59) قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدْ مَتَمْتُمُوهُ لَنَا فَيَنْسُ الْقَرَارُ} (ص: 55-60)

حاولت الزوجة مرات ومرات أن تصوب سلوك زوجها ولم تفلح.. فعلت ما أوجبها عليها الشرع والضمير وموجبات الحياة والحفاظ على الأسرة ففشلت جهودها وذهبت توسلاتها أدراج الرياح فلم يكن أمامها سوى التشبث بالصبر والأمل محولة جهودها إلى رعاية أبنائها الثلاثة.. كانت تتألم وتكتم ألمها في صدرها كلما رآته ليلاً وهو قادم من سهرته ورائحة الخمر تفوح من فمه ليثور عليها متفوها بأحط السباب لمجرد كلمة بسيطة أو نظرة ألم وحسرة تصوبها إليه..

كان من الممكن أن تطلب الطلاق لكنها لم تفعل انطلاقاً من رؤية شاملة للأسرة والأبناء تمسكت بإيمانها برحمة الله واليقين من قدرته.. ولم تشأ أن تهدم هذا البنيان.

خاصة بعد أن تعرفت على جارتها المقابلة لبيتها ووجدت فيها السلوى حيث كانت تحثها على الصبر وتمنحها قوة إضافية على قوتها... كانت حين تشعر بالضيق يجثم على صدرها ترفع سماعة الهاتف لتحدثها.. وإن كان الوقت مناسباً عبرت الشارع لتجالسها ولتأخذ شحنة إضافية من الراحة النفسية.

كان زوجها يعرف أن جارتها صديقة زوجته ووسوس له الشيطان أن جارتها تلك ربما كانت السبب في تأليب زوجته عليه رغم أنها لا تجسر حتى على مجرد توجيه عتاب بسيط لكن الشيطان كان ينسج خيوط الشبكة التي يريدها للدمار والخراب. كانت الجارة الطيبة الشابة تتشاطر جارتها المكلمة في زوجها ألامها وكانت تمنى من قلبها الطيب أن يرفع الله عنها بلاء ذلك الزوج وأن يهديه لكن الله تعالى قال لرسوله {إنك لاتهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء}.

وذات ضحى يوم ذهبت الجارة لزيارة صديقتها أو لرد زيارتها وجلست معها تطمئن على أحوالها دارت أحاديث متنوعة، كما هي العادة بين النساء وكان الزوج سيء الخلق قد ترك عمله ليذهب للبيت لينال قسطاً من الراحة يعوّض به سهره البارحة..

أوقف سيارته في المرأب وحين هم بدخول المنزل شاهد جارتها جالسة مع زوجته حاسرة عن وجهها حيث لم يتوقعا قدومه في ذلك الوقت.. ألقى بالتحية وهو يلقي مع التحية بنظرة متمعنة في جارتها التي بانرت فغطت وجهها ونهضت مستأذنة للمغادرة والذهاب إلى بيتها فيم دلف هو إلى حجرته حيث بدّل ملابسه ودخلت خلفه زوجته بعد أن ودعت صديقتها فأمرها ألا تزججه حيث يريد أن ينال قسطاً من الراحة فأغلقت عليه باب حجرته وتمدد هو على فراشه لكنه لم ينم..

لقد انطبعت صورة جارتها الشابة في خياله المريض وبدأ الشيطان يعد عدته لعمل شرير آخر...

مرت أيام نسج فيها الشيطان شباكه وأحابيله الغادرة موجهاً سهامه المسمومة صوب الجارة الشابة ووقع الشيطان توقيعه الأخير على أحبولته الغادرة حين علم بأن زوجها يمارس عمله بالتناوب ما بين أوقات بالنهار وأوقات بالليل..
لم يكن صعباً عليه أن يحصل على رقم الهاتف الخاص بمنزلها فبدأ بمحاولات حقيرة بواسطة الهاتف في البداية لإغرائها والإيقاع بها طبعاً دون أن تعلم بأن صاحب هذه المحاولات هو زوج جارتها فكانت تصده بأدب وحسم ولم تتشأ أن تخبر زوجها بالأمر لكيلا تزعجه، ومن منطلق أن تضخيم الأمر قد يجلب لها ولكيان أسرته متاعب هي في غني عنها وربما تستطيع أن تعالج مثل هذه السخافات التي تعتبرها غير ذات قيمة..

إلا أن ذلك الأسلوب خيل له أو هكذا تخيل بفعل الشيطان أن المرأة سهلة المنال فلم يتوقف ولم يروع.
وبدا يعتمد الوقوف والنظر من نوافذ بيته المظلة على منزلها لمراقبتها.. كل هذا ولم تدر المرأة الشابة أن سهاماً مسمومة وخفية تصوب نحوها في غفلة منها.

والشيطان لا يتوقف.. إنه عادة ودائماً ما يدفع بمثل هذه الأمور صوب الهاوية.. والهاوية في حقيقة الأمر هي هدفه النهائي فلا وقت لديه ليضيعه، وفي قناعة الشيطان وللحقيقة فإن الهاوية تعني لديه انتصاراً في جميع الحالات حيث إنه إذا انتهت تلك المحاولات بالنجاح فإنه يكون قد ربح وأدى مهمته على أكمل وجه حيث هاوية الزنا وقرار الرذيلة وإن تم الأمر على غير ذلك وهنا نتوقف قليلاً عند كلمة غير ذلك. وهي في الحقيقة تعني إما مشكلة تنتهي بشر على أي وجه من الوجوه كالقتل أو المهانة أو السجن أو دمار أسرة وتحطم مستقبلها، وكل هذه الأمور هي ما يهدف إليها ذلك اللعين بأحابيله وإغوائه لبني البشر ضعفاء الإيمان الذين يشعرون دائماً بأنهم أشقياء تعساء.. الذين يعذبهم ويديمي نفوسهم عدم الرضا وزيف البصر والبصيرة الذين ابتعدوا عن الله فابتعد الله عنهم، وتعالوا بنا لنتبصر كنوز الإيمان والسعادة عبر هذه الآيات الكريمة من سورة الكهف حيث قال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (28) وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَعِينُوا يُعَاثُوا بِمَاءٍ كَأَلْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَقَقًا﴾ (الكهف: 28-29)

هذه الدعوة العظيمة وهذا الهدى الكريم لهو في حقيقته منارة هدى ورحمة لبني البشر كافة تضيء لهم سبيل الحياة الدنيا بعدميتها وفنائها وظلمها وظلامها لينتهي الإنسان إلى نتيجة سعادتها مؤكدة في الدين والدنيا في الحياة وبعد الممات.. أما من ابتعد وسار في زمرة المجرمين ودرهم متخذاً إليه هواه ففعالوا لنر معاً تلك النهاية المأسوية الرهيبة وهذا النذير والوعيد ولنتأمل هنا معاً قول الله تعالى ﴿ وَوَضِعَ الْكِتَابُ فَفَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا خَاصِرًا وَلَا يَنْظِلُم رَّبُّكَ أَحَدًا (49) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَن أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ (الكهف: 49-50).

ثم يقول الحق جل وعلا في نذير واضح لا لبس فيه سبحانه عما يشركون ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ (الكهف: 57).
كان الرجل بشيطانه قد غرق حتى أذنيه في مستنقع تفكيره الدنيء وذات ليلة ليلاء كان فيها زوج الجارة الشابة في نوبة عمله الليلي والمرأة الشابة في بيتها جالسة تتابع برنامج التليفزيون بعد أن نام أبناؤها وكان ذلك الشيطان قد غادر المكان الذي يسهر فيه رفاقه السوء معاً حيث كان قد بيت النية لعمل مشين وغادر زينه له الشيطان لعنه الله وقاد سيارته عائداً لبيته بعد أن تحجج لزملائه بالمرض وهناك في مرآب بيته أوقف سيارته بهدوء ثم ترجل منها ووقف أمام باب مرآبه قليلاً يراقب الشارع الذي كان يغط في هدوء عميق كهدهو القبور.
ثم تقدم وعبر الشارع ودلف من فتحة المرآب المفتوح لبيت الجارة الشابة ومن إحدى النوافذ المظلة على الحديقة تلصص بنظره ليجد المرأة جالسة تتابع جهاز التليفزيون وكعادة الناس في بلادنا الأمانة المطمئنة لا يقلقهم إغلاق أبواب المنازل بالرتاج أو تشديد الإغلاق من عدم فهنا عاش الناس منذ القدم في أمن ووثاق وأمان، وخلال لحظات كان الرجل يقف خلفها بهدوء دون أن تدري وشعرت المرأة الشابة بحركة غير عادية خلفها فاستدارت وهنا كادت أن تغيب عن وعيها ويغشي عليها من الصدمة والخوف إلا أن الله تعالى أراد أن يسترها ويحفظها من شره..

حاولت أن تصرخ ولم تستطع لقد شلَّ الخوف وجمد صرختها. كان يقف أمامها وعلى وجهه ابتسامة شيطان أخذ يهمهم بكلمات غير مفهومة فتماكنت نفسها وأخذت تستعطفه أن يغادر بيتها في محاولة لتثنيه عما عزم عليه فتقدم منها محاولاً الإمساك بها حيث خطط وصمم على اغتصابها إن هي قاومتها، وبالفعل فقد قاومتها المرأة ببسالة وشجاعة.. كانت مقاعد الردهة وطاولاتها عائق في طريقه وهي تحاول الهرب منه.

كانت في حالة رهيبة من الارتباك ولم يكن أمامها من هدف سوي إنقاذ نفسها من براثن هذا الوحش.. كانت تركض حول المقاعد هاربة منه وفي رأسها طوفان متشابك ومتداخل من الأفكار ممتزجة بالخوف والرعب.. وشعرت المرأة بأن كل السبل للهروب مسدودة أمامها.. إنها بمفردها وأبناءها نائمون وحتى لو لم يكونوا نائمين فماذا يستطيعون أن يفعلوا وهم صغار؟ ربما ماتوا من الخوف.. كانت كلما تطلعت ناحية باب الصالة المؤدي إلى الفناء الخارجي اصطدمت برويته ليسد ويغلق أمامها كل منافذ الهروب..

وكانت منها التفاتة فرأت أنها تستطيع الهروب إلى المطبخ فاندفعت وكان أملها أن تغلق عليها باب المطبخ فلم يترك لها فرصة لتفعل ذلك حيث لحق بها وهناك على طاولة المطبخ لمع نصل سكين وكان لها طوق النجاة الذي سببه الله لإنقاذها من محتتها..

اندفعت صوب الطاولة وهو مندفع خلفها حيث ظنها قد سقطت في الفخ وحين اطبقت يده اليسرى على كتفها غاص نصل السكين في قلبه تماماً وسقط الشيطان مترنحاً.. وقفت المرأة الشابة وهي ترتجف من الخوف ولم تدرك ما حدث وخلال لحظات كانت تتحرك في هلع صوب الهاتف هناك بالردهة حيث اتصلت بيد مرتعشة بزوجها وقالت له وهي ترتجف: أرجوك احضر فوراً.. حاول زوجها أن يفهم منها شيئاً فلم يستطع وأدرك أن هناك شيئاً حدث في منزله.

وخلال دقائق كان في منزله ليجد زوجته ملقاة على أرضية الصالة مغشياً عليها ومستندة برأسها إلى أحد المقاعد ويجوارها سكين، وخلال لحظات أفاقَت المرأة وحكت لزوجها ما حدث بالتفصيل فضمها إلى صدره وأخذ يهدئ من روعها ثم تناول الهاتف مستدعياً الشرطة.. لم تكن الساعة قد دقت التاسعة حتى كان التحقيق منتهياً بشهادة زوجة القتل ودلائل الجريمة ونقلت الزوجة الشابة إلى المستشفى لمعالجتها من الصدمة النفسية.. وهكذا انطوت صفحة من صفحات الشر بالهزيمة والانكسار بعد أن أدمت قلوباً وآلمت نفوساً من أجل نزوة شيطانية استسلم لها إنسان: {وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلاً } (الكهف:58).